الفلسفة الإسلامية ومنزلتها من الفكر الفلسفي الإنساني

إذا كانت الفلسفة اليونانية هي الصورة الكاملة الأولى للفكر الفلسفي الإنساني، فهل تعدّ الفلسفة الإسلامية مجرّد استمرار للحركة الفلسفية عند اليونان أم أنها إنتاج عقلي أصيل ينتمي إلى البيئة التي أصدرته بأكثر من سبب؟

لقد اختلف الباحثون في تقدير منزلة الفلسفة الإسلامية من التراث الإنساني الفلسفي، فذهبت طائفة من المؤرخين إلى أنّ المسلمين لم تكن لهم فلسفة خاصة بهم، بل لقد بالغ نفر من هذا الفريق فـأرجع ذلك إلى ضحالة العقلية الإسلامية وعجزها عن تعمق مشكلات الفكر وسبر أغوار المذاهب الفلسفية ، والإسهام فيها بجديد يذكر ، ويستحق أن يضاف إلى حصيلة الفكر العالمي المتصل.

ولا شك أنّ الفريق الأول من الطائفة المنكرة لأصالة الفلسفة الإسلامية إنما يرجع في دعواه إلى أنّ الفلسفة اليونانية قد سدت منافذ الإبداع الفلسفي على اللاّحقين إذ أنها- بحسب رأيهم- قد أكملت رسالة الفلسفة في تفسير الكون والإنسان المبدع الأول، ومن ثمّ لم يبق للخلف إلاّ أن يجيد النقل عنها ويتقن الشرح لنصوصها والإبانة عن متعلقاتها، والتعليق على مسائلها.

وقد سار على هذا الدرب الهللينيون والرومان والمسيحيون ومنهم السريان، وكان على المسلمين أن يتسلموا هذا التراث عن هؤلاء فيسلموه إلى المدرسين وفلاسفة القرون الوسطى من المسيحيين واليهود. فكأنّ دور المسلمين في هذه السلسلة لم يخرج عن كونهم نقلة للعلم الفلسفي اليوناني.

وكان قصارى جهدهم – بحسب هذا الزعم الأخير- أن يجيدوا نقله إلى اللغة العربية بدون تعديل أو تحوير أو معارضة جدية ، فتكون الفلسفة الإسلامية هي بعينها فلسفة اليونان كتبت بلغة عربية ، وبذلك ينتفى أن يكون للمسلمين أي فضل في المشاركة في تكوين هذا التراث والإسهام في حل قضاياه، أو بمعنى أخر إنكار أن يكون للعرب أو المسلمين إنتاج فلسفي ذو أصالة أو ابتكار.

أولاً: مشكلة التسمية:

وثمة صورة أخرى للخلافات الدائرة حول مشكلة الفلسفة الإسلامية وهي تتعلق بتسمية هذا التراث ، فهل هو تراث فلسفي عربي استنادا إلى أنّ اللغة العربية كانت لغة الإنتاج الفلسفي ، وأنّ القرآن وهو دستور المسلمين قد نزل بالعربية ، وكذلك لأنّ العرب هم أصحاب الفورة الإسلامية التي حددت مصير الإسلام وأعطته الدفعة الأولى القوية على طريق النجاح والانتشار، أم أنّ هذا التراث يعد فلسفة إسلامية من حيث أنّ منتحليها وكبار شخصياتها كان معظمهم من شعوب إسلامية غير عربية، أي من الفرس والخراسانيين والأتراك ؟

1/ رأي القائلين بأنها فلسفة عربية: يرى أصحاب هذا الرأي ومنهم مستشرقون(منك، ودي وولف، وأميل برييه، ونللينو، ومن العرب: لطفي السيد) وقليل منهم من المؤرخين العرب أنّ الفلسفة العربية نشأت في أحضان الثقافة العربية التي تمثلت في القرآن وفي العلوم العربية التي صدرت عن الجنس العربي ، فالعرب هم الدعامات الأولى للحضارة العربية بما فيها من أنشطة مادية ومعنوية، ومن ثمّ فإنّ التراث العقلي الفلسفي العربي إنتاج عربي مدين بوجوده للجنس العربي من حيث أنّ العرب هم الذين حملوا لواء الدفعة الأولى للدين والثقافة الإسلامية.

2/ **القائلون بأنها فلسفة إسلامية:**(هورتن وديبور وجوتييه، وكارادفو) على أنّ هذا الرأي القائل بأنها فلسفة عربية لا يثبت أمام النقد العلمي الدقيق ، فعلى الرغم من أنّ العرب هم الرواد الأوائل للثقافة الإسلامية ، إلاّ أنّ اطراد تقدمها وسعة انتشارها لم يتحقق إلاّ بفضل مساهمة الشعوب الإسلامية غير

الناطقة بالعربية من فرس وخراسانيين ومصريين وأتراك ، وقد كتب بعضهم بالعربية أو بلغاتهم الأصلية ، هذا بالإضافة إلى مجهودات أفراد من المسحيين واليهود ممن أظلتهم الحضارة الإسلامية في عهدها الزاهر.

ومن ناحية أخرى فإنه لو لم تتح للعرب فرصة حمل رسالة الإسلام والخروج بها من دائرة حياتهم الجاهلية شبه المنغلقة ، لما تيّسر لهم التعرف المتكافئ على التراث العقلي للعالم القديم ، فتاريخ العرب العقلي في العصر الجاهلي لم يحمل أي بذور تصلح للتطور بقوتها الذاتية فتنشأ عنها مواقف فلسفية جادة.

وقد أشار فريق من الإسلاميين ومن بينهم الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى أنه لا يصح أن نجري أي تغيير في التسمية التي ارتضاها كتاب المسلمين السابقين من أصحاب هذا التراث ، فقد وضعوا لهذا التراث العقلي اسما خاصا فلا يجب أن نحيد عنه. من كتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص21) فقد تكلموا عن الإسلام أو الفلسفة الإسلامية أو فلاسفة الإسلام أو متفلسفة الإسلام.

المنكرون لأصالة الفلسفة الإسلامية: أصحاب هذا الرأي ينكرون على فلاسفة الإسلام الجدة والأصالة في تفكيرهم الفلسفي، ويعتبرونهم مجرّد نقلة للتراث اليوناني الفلسفي، أي وسطاء أدوا دورا كان لا بدّ أن يؤدوه في عملية نقل التراث، فقد كان عليهم أن يؤدوا دورهم في نقل تراث اليونان الفلسفي والعقلي إلى المسلمين في عهد ازدهارهم.

وهذه الطائفة من المنكرين تبني آراءها على أساس دعوة عنصرية خطيرة تشكك في قدرة العقل العربي على التفلسف ، وترى أنه ليس في مقدور العرب أن يتفلسفوا لأنهم من الجنس السامي، وهذا الجنس لا قدرة له على تناول الأمور المجرّدة ، بينماشعوب الجنس الآري – واليونان القدماء منهم – هم وحدهم أصحاب المقدرة على ذلك.

وكان الكونت جوبينو هو أول من أثار هذه المشكلة وميّز الجنس الآري على الجنس السامي بصفة عامة ، وجاء مستشرق آخر وهو كارل هينرش بيكر ، وقارن بين الفن عند الساميين والفن عند الآريين، وذكر أنّ الفنون السامية تظهر فيها المصغرات السيمترية المتكررة التي لا تجمها وحدة تركيبية ، أما الفنون الآرية فإنها تتميز بالتركيب القائم على وحدة الموضوع ، وفيما يختص بالفلسفة يرى بيكر أنه بينما تخضع الروح الإسلامية للطبيعة الخارجية فتنفي الذوات الفردية في كل لا تمييز فيه فلا نتصور الأفكار إلاّ على الإجماع – نجد أنّ الروح اليونانية تمتاز بالفردية واحترام الذاتية وهما محك النظر الفلسفي، ولهذا فقد كان اليونانيون أقدر على التفلسف من المسلمين.

وكذلك استند رينان وكوزان وجوتييه إلى الدراسات اللغوية ليخرجوا منها إلى تقييم الشعوب إلى سامية وآرية ، وأفردوا خصائص ثابتة لكل من الجنسين. وقال رينان بهذا الصدد: "أنا أول من عرف أنّ الجنس السامي إذ قوبل بالجنس الهندي الأوروبي يعتبر حقا تركيبا أدنى للطبيعة الإنسانية ، فالروح السامية تمتاز بالوحدة والبساطة ، أما الروح آرية فإنها تمتاز بالكثرة والتعقيد والساميون يعتقدون التوحيد المطلق الذي يتماشى مع فطرتهم الساذجة ، وقد أثر هذا على نظمهم السياسية والاجتماعية والدينية".